

الكاتب: أنس بوسلام
 كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة الحسن الثاني – الدار البيضاء – المغرب
 البريد الإلكتروني: barisani009@gmail.com

إمبراطورية غانا: دراسة في التاريخ السياسي وبنية الحكم والتنظيمات

The Empire of Ghana: A Study of Political History, Governance Structure, and Organizations

تاريخ الإرسال: 2019/08/25 تاريخ القبول: 2019/11/15 تاريخ النشر: 2019/12/31

التلخيص

يستهدف المقال رصد التاريخ السياسي لإمبراطورية غانا بدءاً بالتأسيس، فعوامل قيام الإمبراطورية، سواء الطبيعية أو الاقتصادية أو الدينية، ثم استعراض مراحل حكمها بدءاً بمرحلة حكم البيضان وانتهاء بمرحلة حكم السوننك، مع تسليط الضوء على عاصمة هذه الإمبراطورية، وتحديد هياكل الدولة، سواء من حيث طبيعة النظام السياسي أو التقسيم الإداري أو تقاليد الحكم أو الجيش والشرطة، وأخيراً الختم بالحديث عن ملابسات انهيار هذه الدولة.

يرمي البحث إلى إمطة اللثام عن جانب مهم من تاريخ أفريقيا، وهو التاريخ السياسي لأفريقيا الغربية وتحديد إمبراطورية غانا، والتي مازال العديد من جوانب تاريخها غامضاً، ويطرح العديد من علامات الاستفهام، التي تقتضي البحث والدراسة.

تم الاستناد في البحث على المنهج التاريخي المرتكز على مجموعة من المقومات الأساسية ومن بينها التعريف والتفسير والنقد والتركيب، إضافة إلى الانفتاح على الإسطغرافيا التاريخية المتعلقة بالموضوع.

الكلمات المفتاحية: إمبراطورية غانا – تاريخ أفريقيا – بلاد السودان الغربي – أفريقيا الغربية.

Abstract :

The article aims to monitor the political history of the Empire Ghana, starting with the founding, the factors of the establishment of the empire, whether

natural, economic or religious, and then review the stages of its rule from the period of the rule of bayan to the era of Sonink, highlighting the capital of this empire, and determine the structure of the state in terms of nature The political system, the administrative division, the traditions of governance, the army and the police, and finally the seal of the circumstances of the collapse of this state.

The research aims to reveal an important aspect of the history of Africa, the political history of West Africa, in particular the Empire of Ghana, wick many aspects of its history is still vague, and poses many question marks, which require research and study.

The research was based on the historical methodology based on a set of basic elements, including definition, interpretation, criticism and composition, in addition to openness to the historiography related to the subject.

key words : Empire of Ghana - History of Africa – Western Sudan – West Africa

مقدمة:

تعد مملكة غانا أول مملكة نشأت بإفريقيا السوداء خلال العصر الوسيط، ومحاولة الوقوف على تعريف غانا تمكنا - ولو إلى حد ما - من خصائص هذه القوة السياسية التي شهدتها بلاد السودان الغربي، ويبدو أن هناك آراء مختلفة لتعريف غانا، فاليقوبي، مثلا، يشير إلى مملكة غانا بقوله: "وملكها عظيم الشأن وفي بلاده معادن الذهب وتحت يده عدة ملوك"¹، أما الشريف الإدريسي، فقد عرفها بأنها "مدينتان على ضفتي البحر الحلو، وهي أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا، وإليه يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة، ومن سائر بلاد المغرب الأقصى، وأهلها مسلمون وملكها من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب"²، و ابن خلدون يعتبر "غانية مدينتان من أعظم مدائن العالم وأكثرها معتمرا"³.

هذا بخصوص تعريف غانا، أما عن موقعها، فالإدريسي يحدده كالآتي: "وأرض غانة تتصل من غربها ببلاد "مقزارة" ومن شرقها ببلاد "ونقارة" وبشمالها بالصحراء المتصلة التي بين أرض السودان وأرض البربر وتتصل بجنوبها بأرض الكفار الللمية وغيرها"⁴، وكانت دولة غانا خلال فترة أوجها وعظمتها تشمل الأرض الممتدة في الوقت الحالي جنوب موريتانيا وجزء

من مالي وشرق السنغال، أما ما تعنيه كلمة غانا لدى المصادر المهتمة بالسودان العربي، فيؤكد البكري أن الاسم متخذ من اسم ملك من ملوكها كان اسمه غانا، وقد كان لهذا الملك شأن عظيم ودور كبير في تلك المنطقة، ولذلك سميت المنطقة التي سيطر عليها وبسط نفوذه عليها وغانا سمة للملوكهم واسم البلد أوكار⁵، أما فيما يخص الدراسات الحديثة، فترى بأن اسم الإمبراطورية لم يطلقه السكان المحليون، بل العنصر العربي هو المسؤول عن أصل هذه التسمية⁶.

1- تأسيس إمبراطورية غانا : الموقع وإشكالية النشأة:

باستطلاع ومقارنة المعطيات التي توفرها المصادر العربية، استطاع الباحثون تحديد الإطار الجغرافي العام لمنطقة أوكار التي تقوم عليها مملكة غانة، وقد تم توطينها فيما بين روافد نهر السنغال غربا وروافد نهر النيجر شرقا، وعلى حدودها الشمالية كانت تتحرك القبائل البربرية الصحراوية، وفي الفترة التي بلغت فيها مملكة غانة أوج قوتها (القرن 5هـ / 11م)، تمكنت من بسط نفوذها جنوبا، غير أنها لم تصل إلى مقدمة الغابات الاستوائية.

إن أغلب الروايات التي يستدل بها عن أصل غانا تشير إلى أن بداية نشأتها كانت مع الجنس الأبيض، وفيما يتعلق بالتحديد الزمني لقيام هذه الإمبراطورية، فقد تضاربت الآراء في ذلك، فبوفيل E.W.Bovill يرى أن مملكة غانا القديمة قد وجدت قبل الهجرة، وأنه قد حكمها اثنان وعشرون ملكا قبل التاريخ واثان وعشرون ملكا بعد ذلك التاريخ وكلهم كانوا من الجنس الأبيض، ومع ذلك، فإن أصلهم لا يعرف على وجه اليقين⁷، في حين أن بارت وديلافوس المتخصصين في التاريخ الإفريقي يتفقان على أن تأسيس هذه الدولة كان عام 300م⁸، أما الباحث المغربي محمد الغربي، فيحدد الفترة التي عمرت خلالها هذه الإمبراطورية، بقوله: "قامت إمبراطورية غانا، وتوسعت خلال ستة قرون من القرن السادس حتى القرن العاشر، وكانت ظاهرة سياسية وحضارية مركزية فريدة في إفريقيا الغربية"⁹.

وهكذا يظهر من خلال هذه الآراء، مدى الاختلاف الحاصل بين المؤرخين في تحديد زمان قيام هذا الكيان السياسي داخل القارة الإفريقية، ومع ذلك، فيمكن القول أن مملكة غانا قد عمرت طويلا، بيد أن السؤال الذي يطرح نفسه بشدة في هذا الصدد، هو كيف تمكنت مملكة غانا من تحقيق كيان سياسي مستقل؟ وعلى أي أساس استندت في قيامها؟

II- عوامل قيام إمبراطورية غانا :

إن بروز دولة غانا على مسرح الأحداث السياسية في منطقة السودان الغربي، خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين 8 و11م، لم يتم بصورة عشوائية أو عفوية، وإنما تحكمت فيه مجموعة من العوامل: طبيعية واقتصادية ودينية.

1. العوامل الطبيعية :

من خلال إلقاء نظرة خاطفة على خريطة إفريقيا الغربية الطبيعية، يتبين للباحث أن المنطقة أو المجال الذي ظهرت فيه دولة غانا مجال صحراوي يتسم بقلة وهزالة الغطاء النباتي، إن لم نقل انعدامه في بعض الأحيان، إضافة إلى ضعف التساقطات، فبعض الكتاب القدماء أعطوا صورة عن حالة الصحراء في تلك الفترة، مثل هيرودوت، الذي يصف ليبيا بأنها مليئة بالحيوانات البرية، وتليها أرض رملية يندر وجود الماء بها، ولا تمثل شيئاً سوء الصحراء¹⁰.

وهذه الظروف الصعبة جعلت الصحراء أقل استقطاباً للسكان، ولكن هذا لا يعني أن الصحراء كانت خالية من السكان، "ولكن نسبتهم كانت قليلة تتناسب مع مواردها الهزيلة التي جعلت منهم الصحراء قوماً من الرعاة لا يجدون...سوى استخدام التنقل بحثاً عن المصادر الشحيحة من الماء والمرعى"¹¹، وبذلك كان طبيعياً أن تتعاطى شعوب وأقوام هذه المنطقة للنشاط الرعوي، وأحياناً ممارسة الزراعة التي انحصرت في بعض الواحات، ومادام هؤلاء الرعاة يعتمدون على التنقل، فقد كان لزاماً عليهم أن يدخلوا في صراعات ومواجهات مع الأقوام المجاورة لهم خاصة عندما تزداد حدة الجفاف ويقل الكلاً للماشية، "وبالذات عندما لا تكون هناك مراعي كافية وتجف الآبار، فإن ما كانت تدفع به الصحراء من هجرات موسمية معتادة تحول إلى نمط آخر مختلف في الحجم وفي التوقيت، ويتعارض مع مصالح الجيران، مما يخلق نواة للمشاكل وعدم الاستقرار، فما كان هجرة موسمية يصبح، والحالة هكذا، نوعاً من الغزو والنهب الذي لا يلبث أن يتحول إلى نوع من الاحتلال يعطي الراعي حق التسلط على المزارع الضعيف"¹²، وخلال استطلاعنا لمجموعة من الدراسات التي تطرقت لعوامل قيام دولة غانا، يتضح أنها ركزت أساساً على العوامل الاقتصادية متناسية دور العوامل الطبيعية، فبالرجوع إلى الكتابات الأوروبية - مثلاً - نجدها تتحدث عن الصحراء كحاجز معيق ينفي الاتصالات التي تمت ما بين الشمال والجنوب، كما ينفي وجود حضارات بهذه المنطقة، فهذه الظروف الطبيعية القاسية هي التي ستفرز دولة غانا ككيان سياسي قائم بذاته، ذلك أن الصحراء لم تكن أبداً حاجزاً أو قطراً مجذباً من الحياة.

ومهما يكن من أمر، وبالرغم من سلبية الظروف الطبيعية، فإن الإنسان الإفريقي حاول أن يتكيف معها معتمدا على إمكانياته الذاتية، وهو ما يتفق مع ما ذهب إليه عالم الحضارات أرنولد توينبي A.J.Tymbee، الذي يرى بأن الحضارات تظهر في البيئة التي تتسم بالمشقة والصعوبة، إذ كلما عظم التحدي اشتد الحافز، إضافة إلى ذلك، فقد استفادت دولة غانا لمدة طويلة من الموقع الجغرافي الذي سمح لها بأن تلعب دور الوساطة في العلاقات التجارية خلال الفترة الوسيطية ما بين شمال البحر المتوسط ومناجم الذهب في الجنوب.

2. العامل الاقتصادي

لقد شكل العامل الاقتصادي أبرز ركيزة استندت إليها دولة غانا في إثبات وجودها، وتمثل أهمية هذا العامل في توفر دولة غانا على أهم مصدر من مصادر الثروة، ألا وهو معدن الذهب، ذلك " أن ثروة غانا تعتمد على الإتجار بالذهب الذي كان على جانب كبير من الوفرة"¹³، فتوفر دولة غانا على هذا المعدن النفيس قد بوأها مكانة هامة في العلاقات التجارية خلال العصر الوسيط، "ولا يخفى على الدارس مدى أهمية معدن الذهب في تنشيط العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين المغرب والسودان الغربي، أضف إلى ذلك أن جميع الروايات تحدثت عن جودة ذهب غانا اعتبرت ذهب غانا أجود الذهب"¹⁴، وكل هذا أعطى لدولة غانا دفعة جديدة وأكسبها مجدا، فأصبحت الاسم الشامل لكل غرب إفريقيا، بل إن هناك من تلقب باسمها تيمنا بأمجادها وثروتها السالفة الذكر، وقد اعتبر معدن الذهب خلال الفترة الوسيطية من أهم أسباب الثروة والجاه، حيث ساهم هذا المعدن الأصفر بشكل مكثف في تنمية موارد الدولة، "وفي الفترة الموازية للعصر الإدريسي بلغت غانا حدا من الترف بسبب مواردها من تجارة الذهب"¹⁵.

فإذا كان معدن الذهب – مثلا - قد ساهم في تحقيق الازدهار والرخاء الاقتصاديين لدولة غانا، فإنه طالما جلب لها العديد من الويلات، فالحروب التي دارت مثلا بين الغانيين والملثمين من جهة وبين الغانيين والعرب من جهة أخرى، اعتبرها الدارسون حروبا تجارية وليست حروبا دينية، "وربما كانت تجارة الذهب مع غانا، قد استقرت بعد مجيء العرب إلى حد أن حاستهم التجارية الحادة عملت كثيرا على تطويرها، ولا يمكن الشك فيها أكثر مما تستطيعه الرغبة التجارية القوية الكامنة في صدورهم"¹⁶.

كما أن حملة أحمد المنصور على بلاد السودان كانت لتحقيق أهداف اقتصادية صرفة، وذلك ما ذهب إليه شارل أندري جوليان بقوله: "إن المنصور في حاجة إلى المال"¹⁷، وإلى

جانب هذا، لم تقتصر تجارة غانا الخارجية على الذهب فقط، بل استفادت كذلك من تجارة الرقيق، "وقد اشتهر "كوميبي" بسوق الرقيق فيها، وقد حصلت غانا على رقيقها من قبائل أكلي لحوم البشر، الذين كان العرب يعرفونهم، ملمم أو ذمدم"¹⁸.

3. العامل الديني :

حينما نتحدث عن دور العامل الديني في قيام دولة غانا، فإنه لا يسعنا إنكار دور التجار المسلمين الذين كان أغلبهم علماء يزاجون بين مهمة التجارة ونشر الإسلام، فعن طريق سلوكهم الشخصي القويم وأمانتهم استطاعوا أن يتعايشوا مع الأهالي وأن يؤثروا فيهم، إضافة إلى اعتناق الإسلام من طرف ملوك غانا ودوره في ازدهار الإمبراطورية، حيث ساهم الإسلام في تجنب المواجهات العسكرية بين المسلمين والغانيين، فانتشار الإسلام في هذه البقاع أتاح ربط علاقات تجارية وثقافية مع البلدان الإسلامية، ذلك أن إسلام ملوك غانا كان له دور كبير في استقرار التجار العرب والبربر بغانا.

فجل المؤلفات الجغرافية أشارت إلى أن المسلمين أصبحت لهم مدينة خاصة في غانا، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على التعايش والتسامح الذي ساد بين المسلمين والغانيين، وبالتالي، فانتشار الإسلام أدى إلى إشاعة قيم ونظم جديدة، كما أن الحماس الديني الذي تميز به الدعاة سيؤدي إلى تغيير العقليات والسلوكيات وتصحيح مجموعة من الأفكار التي تهم الخلافة والإدارة، فالإسلام يعد روح الحياة والإنجازات الفكرية والحضارية، ولا يخفى علينا ما حققه الفاتحون المسلمون من أعمال جليلة في البلدان التي حلوا بها، "فقد كان بمدينة من بلاد السودان مما يلي البحر المحيط ملك بني صالح، وقال بعض المؤرخين أنه صالح بن عبد الله بن موسى، وأنه خرج أيام المأمون ولحق بنوه بالمغرب، فكان لهم ملك في غانا"¹⁹.

غير أن هناك من يخالف هذا الرأي، ويوضح أن اعتماد غانا على الدين الإسلامي كان ضعيفا، فالأستاذ محمد الغربي – مثلا - لا يوافق بعض المؤرخين الذين يذهبون إلى حد القول بأن الفكرة الإسلامية كانت هي العامل القوي في بناء إمبراطورية غانا أو بناء الإمبراطورية المغربية للسودان، لأن ارتكاز غانا على العنصر الديني كان ضعيفا جدا بدليل تصديها للمرابطين الذين أرادوا حمل الزنوج بالقوة على اعتناق الإسلام²⁰.

لكن اختلاف الرؤى هذا، لا يقف حاجزا أمام قولنا أن الحملات الدينية قد لعبت دور المنبه، فأيقظت بذلك الإنسان الغاني من سباته، لينضم إلى مد الحضارة والتقدم ولاسيما بعدما غيرت مسارها وأصبح هدفها استقطاب الطرق التجارية والذهب أكثر من نشرها للإسلام،

فكل الحملات التي تلت عقبة بن نافع الفهري، والتي كانت تنطلق من المغرب الأقصى لم تعد تولى أهمية للعنصر الديني، بل اتخذته كذريعة للوصول إلى أهدافها الخاصة. صفوة القول، فإن الرواج التجاري الذي اعتبر الذهب والعبيد قطبي قاعدته واعتناق الأمراء السود للإسلام والاحتكاك البشري، كل ذلك كان مسؤولاً عن قيام إمبراطورية غانا.

III- مراحل الحكم في غانا:

1. مرحلة حكم البيضان :

أكد مجموعة من المؤرخين أن من حكم غانا كان من البيض المهاجرين من شمال إفريقيا ومن برقة بليبيا تحديداً وذلك حوالي القرن الأول الميلادي، وانتهى بها المقام في منطقة أوكار وسط مجموعة من القبائل الزنجية وأغلب هؤلاء من السوننك، ثم أصبحت ذات بأس وشوكة بدءاً من القرن الرابع الميلادي، وعن طبيعة وأصل أول من حكم غانا يقول عبد الرحمان السعدي صاحب تاريخ السودان: "وهم بيضان في الأصل"²¹، غير أن ظل الشك يظل قائماً حول أصولهم الغامضة: هل هم يهود أم عرب مغاربة؟

ومن جهة أخرى، نجد عبد الرحمان السعدي قد رجح أنهم من العرب المغاربة الذين اختلطوا بالزنج وصلة العرب المغاربة بقبائل السودان قديمة، وأكد أن أهل غانا أنفسهم يقولون إن أسرة عربية مغربية كانت تحكم بلادهم منذ زمن بعيد، كما سجل أن أول سلطان لها هو "قيمع" ومكان إمارته غانا، وهي مدينة عظيمة في أرض "باغن"، قيل أن حكمهم كان قبل البعثة النبوية²².

وأطلق محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش على ملكهم "كيمع"، ويقصد في لغة "وعكري" ملك الذهب، وهو من أوائل الملوك الذين حكموا غانا، وقد مات منهم عشرون ملكاً قبل ظهور الدعوة المحمدية، وتعرف مدينتهم باسم "قنب" وقد زالت دولتهم في القرن الأول الهجري، وكان آخر ملوكهم هو شخص يدعى "كنسعي"، وكان معاصراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم²³.

وفي السياق ذاته، ينقل الباحث الهادي المبروك الدالي رواية لأحمد بن بابير الأرواني صاحب "الجواهر الحسان في أخبار السودان" يقول فيها: "أما مالي، فأقليم كبير واسع جدا في المغرب، وقيمع هو الذي بدأ السلطنة في تلك الجهة، ودار إمارته غانة، وهي مدينة عظيمة في أرض "باغن"، قيل إن سلطانهم كان قبل البعثة، فتملك، حينئذ اثنان وعشرون ملكاً،

وهم بيضان في الأصل، ولكن لا نعلم من ينتهي إليه في الأصل، وعندما انتهت مدتهم، وانقرضت دولتهم، خلفهم في السلطة أهل مالي²⁴. ومن خلال هذه الروايات لكل من السعدي والأرواني، يميل الدالي إلى القول بأن حكام غانا من البيضان، قدموا من الشمال الإفريقي، وبالتحديد من برقة بليبيا، ويعلل ذلك بعدة أسباب²⁵.

2. مرحلة حكم السوننك :

استطاعت أسرة من السوننك نهاية القرن الثامن الميلادي، وهي أسرة "سيسي" طرد أسرة البيض الحاكمة أو دولة كيمع أو قيمع، وكانت هذه الأسرة الجديدة تتحكم في منطقة "وجادوا"²⁶، وصور صاحب "تاريخ الفتاش" نهاية حكم البيضان بقوله: "ثم أفتى الله ملكهم وسلط أراذلهم على كبرائهم من قومهم واستئصالهم وقتلوا جميع أولاد ملوكهم، حتى يبقروا بطون نساءهم ويخرجون الأجنة ويقتلونهم"²⁷، وقد تمكن السوننك خلال فترة حكمهم من الاستيلاء على مناطق هامة، من ضمنها أودغشت سنة 990م، واتخذوها عاصمة لهم كما سيطروا على "ولاتة أو" و"لاتا" و"أبنار" و"كوغة" و"الوكن" و"سامة"²⁸.

وصلت غانا قمة اتساعها خلال القرن العاشر إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي نفوذها إلى الشمال، وخضعت لها رقاب جل قبائل الصحراء الجنوبية من العرب إلى أعالي السنغال وحدود مملكة التكاررة، ومن الشرق إلى قرب تنبكتو²⁹، ولما كانت قبيلة السوننك هي مؤسسة إمبراطورية غانا، وأن الملكية في بعض عشائرها، امتازت هذه العشيرة عن غيرها من عناصر سكان غانا، فكان منها أغلب جيش الإمبراطورية وكثير من كبار أعوان الملك³⁰.

IV- عاصمة غانا

لقد كان أول مشكل استلزم حله من طرف الدارسين والباحثين في تاريخ غرب إفريقيا، هو مسألة عاصمة غانا الشهيرة، إذ نعلم من خلال البكري أن لفظ غانا لقب حمله الملوك واسم لعاصمة، غير أن علماء الآثار الفرنسيين أثبتوا، بشكل لا يرقى إليه الشك، أن الأطلال الواسعة على بعد 500 كيلومتر تقريبا في الجنوب الغربي من مدينة تنبكتو، تبين موقع عاصمة غانا القديمة وهي مدينة "كومي صالح"، ويرجع تأسيسها إلى عهد حكم البيض الأول، ويقال إنها بنيت عام 300م، وظلت تنمو تدريجيا³¹، وقد ترك لنا البكري بعض الأخبار عن عاصمة غانا استقاها من تجار البربر، منها أنها كانت تتألف من مدينتين منفصلتين تبعد

الواحدة عن الأخرى قرابة ستة كيلومترات إحداهما كانت مخصصة للمسلمين، وكانت تشمل على نحو اثني عشر مسجداً يجتمع فيها الفقهاء البارزون، والبلدة الثانية التي تعرف بالغابة كانت وثنية، وإلى جانب ذلك كانت كومي قبلة للتجار المسلمين، إذ يشير الإدريسي إلى أن العاصمة كومي "كانت أكبر أسواق السودان، حيث اعتاد التجار من جميع أنحاء المغرب أن يتجمعوا فيها وكانت مصدر ثروة غانا"³²، وقد نالت مجدها التاريخي والاقتصادي والحضاري بفضل موقعها الاستراتيجي الهام، وذلك ما عبر عنه الباحث المغربي مصطفى ناعمي بقوله: "وامتاز هذا الموقع بقربه من مناجم الذهب، وبتوسطه لمنطقة اقتصادية بالغة الحيوية تراقب مختلف المسالك المائية والبرية القريبة من الصحراء"³³.

7- هياكل الدولة

1. النظام السياسي ووراثة العرش :

تميز نظام الحكم السائد في غانا بكونه نظاماً ملكياً استبدادياً كباقي أنظمة الحكم في باقي ممالك السودان الغربي في عصرها الوثني والإسلامي كذلك، وهذا ما تتفق عليه مختلف المصادر والدراسات المعاصرة.

وتتمثل آلية وراثة العرش في إمبراطورية غانا في توريث الحكم لابن الأخت، وذلك ما نفهمه من قول البكري: "وستهم أن الملك لا يكون إلا في ابن الأخت، لأنه لا يشك فيه، أنه ابن أخته، وهو يشك في ابنه"³⁴، وقوله: أيضاً: "ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره، وغير ولي عهده وهو ابن أخته"³⁵، ويبرر البكري هذه الآلية باعتبار أن المولود ابن أمه وهو أمر مقطوع بصحته خلافاً لابن الأب، وهو أمر مشكوك فيه، كما يفسر الباحث الهادي المبروك الدالي هذا الأمر بالتقاليد الوثنية القديمة، التي ترفع من شأن المرأة عند أغلب القبائل الإفريقية الوثنية³⁶.

وانطلاقاً من نهاية القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، أي زمن انتشار الإسلام بشكل قوي في منطقة السودان الغربي، زالت آلية توريث العرش المذكورة سلفاً، وبالمقابل أصبح الملك يورث للإبن.

وكان ملك غانا يث في مختلف شؤون الإمبراطورية مهما كانت صحته ومقدرته ولياقته، وقد أورد البكري خبراً عن الملك "بسي"، الذي أورث عرشه لابن أخته مفاده أنه ولي العرش، وهو ابن 58 سنة، وأن بصره قد كف في أواخر أيامه، غير أنه كتم ذلك عن أهل

مملكته ويوهمهم أنه يبصر، فتوضع بين يديه أمور الحكم والسياسة، فيقول: هذا أحسن وهذا قبيح، وكان وزراؤه يلبسون ذلك على الناس"³⁷.

2. التقسيم الإداري في إمبراطورية غانا :

تم تقسيم الإمبراطورية إلى ولايات أو ممالك، وكان لكل ولاية أو مملكة حاكم أو وال يدير شؤونها، ومن أبرز الولايات، نذكر "أودغشت" و"أوكار" وهي في الوسط وممالك عرب المغاربة في الشمال، و"ديارا" و"تاكانت" و"باسيكورو" في الشرق، و"واجاو" و"كانياجا" و"باغن" في الجنوب والجنوب الشرقي.

قام نظام الحكم في هذه الولايات على أساس المركزية، اللهم في بعض الولايات التي ظل الحكم فيها وراثيا في عائلات محددة، ولم تكن محاولات الانفصال عن السلطة المركزية في كومبي صالح لتحديث إلا إذا شعرت هذه الولايات أو إحداهما بقوتها أو ضعف المركز، ولنا في ما حدث بعد دخول المرابطين "كومبي صالح" عام 469هـ/1076م خير مثال على هذا، حيث انفصلت كل من "ديارا" و"كانياجا" و"جالام"، وبالمقابل اقتصر حكم السلطة المركزية على مناطق بعينها مثل "أوكار" و"باسيكورو"، ومثلت "كومبي صالح" مقر موظفي الملك ومستشاريه من المسلمين هؤلاء الذين شكلوا النخبة المثقفة آنذاك، حتى في العصر الوثني بغانا، وينطبق هذا على المسلمين من الوطنيين السوننك، وعلى من هاجر من العرب والبربر واستقر في غانا وولايتها³⁸، وتأكيدا على أهمية هذه النخبة أو الفئة، يقول البكري: "وتراجمة الملك من المسلمين، وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه"³⁹.

3. تقاليد الحكم في إمبراطورية غانا :

تعتبر المجالس التي يعقدها الملك للبت بنفسه في الشكاوي وأمور الحكم في العاصمة "كومبي صالح" من أبرز تقاليد الحكم في الإمبراطورية، سواء في العصر الوثني أو في العصر الإسلامي والتأثير الشرقي واضح فيها، والبكري يصف هيئة جلوس الملك في هذه المجالس بقوله: "وهو- أبي ملك غانا الوثني- يجلس للناس والمظالم في قبة، وحوله عشرة أفراس بثياب مذهبة ووراءه عشرة من الغلمان، يحملون الحجف (أي الدروع) والسيوف المحلاة بالذهب، وعن يمينه أولاد ملوك بلده (أي ملوك الولايات الخاضعة له)، قد ضفروا رؤوسهم على الذهب وعليهم الثياب الرفيعة ووالي المدينة (أي حاكم العاصمة) بين يدي الملك جالس على الأرض، وحواليه الوزراء جلوسا على الأرض، وعلى باب القبة كلاب منسوبة (أي أصلية) لا تكاد تفارق موضع الملك تحرسه، في أعناقها سواجير (أطواق) الذهب

والفضة، يكون في الساجور عدد رمانات ذهب وفضة وهم يندرون بجلوسه بطبل يقال له "دبا" (تعني الطبل عند السوننك)، وهو خشبة طويلة منقورة، فيجتمع الناس⁴⁰.
ويضيف البكري، أنه إذا ما تناهى صوت الطبل إلى أسماع الناس هرعوا إلى قبة الملك، "فإذا دنا أهل دينه منه، جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم، فتلك تحيتهم له، وأما المسلمون، فإنما سلامهم عليه تصفيقا باليدين"⁴¹.

أما عن هيئة ركوب الملك المسلم للبحث في الظالم، فيصف ذلك الإدريسي بقوله: "أعدل الناس فيما يحكى عنه ومن سيرته قربه من الناس وعدله فيهم، له جملة قادة يركبون إلى قصره كل يوم، ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه، فإذا اجتمعت إليه جميع قادته ركب وسار يقدمهم ويمشي في أزقة المدينة ودائر البلد، فمن كانت له مظلمة أو نابه أمر تصدى له، فلا يزال حاضرا بين يديه حتى يقضي مظلمته، ثم يرجع إلى قصره، ويتفرق قادته، فإذا كان بعد العصر، وسكن حر الشمس، ركب مرة ثانية، وخرج وحوله أجناده فلا يقدر أحد على قربه، ولا على الوصول إليه، وركوبه في كل يوم سيرة معلومة"⁴²، ويقصد الإدريسي بهذا الوصف ملكا حكم خلال القرن الثاني عشر الميلادي، إذ وصف قصره، والذي بني عام 510هـ/1116م.

ومن خلال هذه الروايات حول تقاليد الحكم في غانا، يمكن الخروج بالخلاصات التالية:

أ – كان للملوك غانا مكان مخصص للنظر في المظالم، وهي قبة السلطان، والقبة توجي أن الطرز المعمارية في غانا طرز إسلامية.

ب – العادات والطقوس الملوكية بالقصر، مثل عادة ضرب الطبل لغرض التجمع، مستمدة من الشمال الإفريقي.

ج – الطريقة التي كان يحيى بها أبناء المملكة ملكهم تعبر عن الإذلال والخضوع.

د – احترام ملوك غانا للمسلمين.

هـ – التنظيم الإداري الذي كانت عليه الإمبراطورية نظام الوزارات.

و – عدل ملوك غانا ونزولهم إلى شوارع المدينة للفصل في المنازعات، دليل على تأثرهم بنظام الحكم الإسلامي وعلى تغلغل الإسلام في نفوسهم، وإن لم يعتنقوه.

4. الجيش والشرطة:

عرفت إمبراطورية غانا بقوة جيشها وكثرة أعداده وعدته، وفي هذا الشأن يقول ابن الوردي: "ولها (أي غانا) ملك ضخم في جنود وعدد وعدد⁴³، أما عن بنيته، فيتألف من القبيلة التي

تنسب إليها الأسرة المالكة⁴⁴، ويؤكد البكري من جهة أخرى على قوة فرسان هذا الجيش، رغم أن خيول هذا الجيش قصيرة الطول، ذلك أنه إذا احتفل ملك غانا ينتهي جيشه إلى مائتي ألف، منهم رماة أزيد من أربعين ألفا، وخيل غانا قصار جدا⁴⁵، ومن جهة أخرى يؤكد الباحث المغربي أحمد الشكري، أن تقدير عدد الجند هذا مبالغ فيه، وبالمقابل يرى أن هذه القوة العسكرية كانت كافية لاستيفاء الغرض منها خاصة في العاصمة والمراكز التجارية والطرق الرابطة بينهما، والمحطة الجنوبية (غياروا) التي كانت تستقبل الذهب، أما المناطق الهامشية أو القليلة الأهمية اقتصاديا، فلم تكن تهم ملك غانا بنفس القدر، ويستدل الباحث نفسه على طرحه المذكور بالسياسة العسكرية لمملكة غانا، وهي في عز أوجها، إذ في الوقت الذي نجدها تسيطر على أودغشت (بعد سنة 360هـ/971م) في الشمال وعلى بعض مناجم الذهب في الجنوب، في نفس الوقت، نلاحظ عدم التفاتها للعمليات الجهادية التي كانت تقوم بها مدينة "سلي" المسلمة على الحدود الغربية⁴⁶، وفيما يخص أسلحة هذا الجيش، فكانت حديدية ومتفوقة تقنيا على أسلحة الدول المجاورة، ومن تلك الأسلحة السيوف والرماح والخناجر والسهام، في حين حاربت الدول المجاورة بقضبان الأبنوس⁴⁷. أما جهاز الشرطة، فكانت مهمته الحفاظ على الأمن الداخلي العام، ويذكر الباحث الهادي المبروك الدالي، أن التعذيب هو الوسيلة التي كانت متاحة في استخلاص المعلومات من المجرمين، والذي يقوم على هذا الجهاز يعرف بالأمين⁴⁸.

يتضح، إذن، أن إمبراطورية غانا كانت تعرف تنظيما سياسيا وإداريا محكما، وهو ما ضمن لها الاستمرارية والبقاء عدة قرون من الزمن.

VI- انهيار إمبراطورية غانا:

لقد كان انهيار هذه الإمبراطورية نتيجة تراكم مجموعة من العوامل، بشكل تدريجي زمنيا، وألاها الجفاف الذي حل بالمناطق الممتدة شمال حوض السنغال بدء من القرن العاشر الميلادي مما حمل الناس على الهجرة والتفرق⁴⁹، وثانها حملات المرابطين على المنطقة أواسط القرن 11م، غير أن هذا العام لم يسقط هذا الكيان السياسي بشكل نهائي، وإنما حول نظامه إلى الإسلام، وبالتالي، فقد كان فتحا أكثر منه غزوا، لكن الأهم من هذا، هو تداعيات هذا الغزو أو الفتح على اختلاف التوصيفات، هذه التداعيات تمثلت في خروج مجموعة من الممالك الخاضعة للإمبراطورية وإعلان استقلالها، بحيث لم تعد سلطة ملوك غانا المسلمين قائمة إلا في "كالر" و"باسيكورو" و"ديارا"، وفي مطلع القرن الثالث عشر جاءت

الضربة القاصمة لهذه الإمبراطورية، حيث استولى أقوى أباطرة "الصوصو"⁵⁰، وهو "سومانجور" وعلى العاصمة "كومي صالح" سنة 1203م، وهكذا أنهى الصوصو سيادة الملوك الغانيين المسلمين، غير أن العاصمة "كومي صالح" ظلت محافظة على معمارها ومرافقها ودورها إلى أن قام أحد أباطرة مالي يدعى "ماري جاطة"⁵¹ بتدمير ما تبقى منها سنة 1240م بعد معركة حاسمة مع إمبراطورية الصوصو سنة 1235م. ضم بعدها جميع ممتلكات هذه الإمبراطورية وتدمير العاصمة "كومي صالح" تطوى صفحة إمبراطورية غانا بشكل نهائي.

خاتمة:

تأسيسا على ما سلف، نستخلص أن قيام إمبراطورية غانا كان إفرازا لتظافر مجموعة من العوامل: طبيعية واقتصادية ودينية، وليست نتاجا لعامل واحد بذاته كما ذهبت إلى ذلك بعض الدراسات الحديثة، إضافة إلى الغموض الذي مازال يلف زمن تأسيس هذه الإمبراطورية، كما يتضح أن هذه الإمبراطورية قد عرفت مرحلتين من الحكم: أولاهما، سادت فيها عناصر خارجية (البيضان)، وثانيهما، سادت فيها عناصر محلية (السوننك)، وقد تأثرت بالمد الحضاري الإسلامي، وعلى صعيد آخر، شهدت هذه الدولة تنظيما سياسيا وإداريا وعسكريا حاول أن يجد لنفسه معالم الحكم المنظم، وأخيرا، فانهايار هذه الإمبراطورية لم يكن فجائيا وانكساريا، وإنما كان تدريجيا وتراكميا.

¹ - اليعقوبي، أبو العباس أحمد، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، د.ت، المجلد الأول، ص 194.

² - الإدريسي الشريف، أبو عبد الله محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الأولى، السنة 1989، الجزء الأول، ص 23.

³ - ابن خلدون، عبد الرحمان، تاريخ ابن خلدون، الدار البيضاء، دار الرشد الحديثة، الجزء السادس، ص 66

⁴ - الإدريسي الشريف، المصدر السابق، ص 23.

⁵ - البكري أبو عبيد الله، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك، باريس، ميزونوف، 1965، ص 184.

⁶ - خاصة تلك التي ألفت انطلاقا من الثمانينات.

- 7 - بوفيل Bvill, E.W.، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة د.الهادي أبولقمة ود. محمد عزيز، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، الطبعه 2، السنة 1988، ص 39.
- 8 - محمود، حسن أحمد، الإسلام والثقافة العربية في افريقيا، القاهرة، دار الفكر العربي، 1986، ص 26
- 9 - الغربي، محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1982، ص 30
- 10 - انظر تفاصيل أكثر عند هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، مراجعة د.أحمد السقاف ود. حمد بن صراي، أبوظبي، المجمع الثقافي، 2001، الكتاب الرابع، ص 293 - 372
- 11 - بوفيل، المرجع السابق، ص 42.
- 12 - المرجع نفسه، ص 43.
- 13 - المرجع نفسه، ص 150.
- 14 - حركات، إبراهيم، طبيعة العلاقات المغربية مع افريقيا الغربية في العصر الوسيط، ضمن كتاب العلاقات بين المغرب وافريقيا الغربية، الرباط، منشورات جمعية موظفي كلية الآداب بالرباط، 1992، ص 34.
- 15 - المرجع نفسه، ص 33.
- 16 - زاهر، رياض، الممالك الإسلامية في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968، ص 93.
- 17 - جوليان، شارل أندري، تاريخ افريقيا الشمالية، الطبعه 4، الجزء 2، ص 264.
- 18 - زاهر رياض، المرجع السابق، ص 93.
- 19 - ابن خلدون، عبد الرحمان، المرجع السابق، الجزء 4، ص 127.
- 20 - الغربي محمد، المرجع السابق، ص 32.
- 21 - السعدي عبد الرحمان، تاريخ السودان، باريس، نشر هوداس وبنوا، 1964، ص 9.
- 22 - المرجع نفسه، ص 9.
- 23 - كعت، محمود، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، باريس، ميزونوف، 1984، وقف على طبعه السيدان هوداس ودولافوس، ص 41
- 24 - الدالي، الهادي المبروك، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعه الأولى، 1999، ص 24.
- 25 - المرجع نفسه، ص 25.
- 26 - المرجع نفسه، ص 26.
- 27 - كعت، محمود، المصدر السابق، ص 42.
- 28 - ابن خلدون، عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 26.
- 29 - الدالي الهادي المبروك، المرجع السابق، ص 26.

- 30 - طرخان، إبراهيم علي، إمبراطورية غانا الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص 63.
- 31 - Thomassy, Paul et Mauny, raymand, Compagne de Fouilles à Koumbi salah, bulletin de l'institut française d'Afrique Noire, AXIII 195, N°2, P 438 – 468.
- 32 - زاهر رياض، المرجع السابق، ص 109.
- 33 - ناعمي، مصطفى، الصحراء من خلال بلاد تكتنة: تاريخ العلاقات التجارية السياسية، الرباط، منشورات عكاظ، 1988، ص 53.
- 34 - البكري، المصدر السابق، ص 75.
- 35 - المصدر نفسه، ص 75.
- 36 - الدالي الهادي المبروك، المرجع السابق، ص 31.
- 37 - البكري، المصدر السابق، ص 75.
- 38 - بوفيل، المرجع السابق، ص 84.
- 39 - البكري، المصدر السابق، ص 175.
- 40 - المصدر نفسه، ص 175-176.
- 41 - المصدر نفسه، ص 176.
- 42 - الشريف الإدريسي، المصدر السابق، الجزء 1، ص 23 – 24.
- 43 - ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر، تاريخ ابن الوردي، لندن، نشر S.Hylander، 1823، 158.
- 44 - قداح، نعيم، افريقيا الغربية في ظل الإسلام، مراجعة عمر الحكم، كوناكري، 1969، ص 37.
- 45 - البكري، المصدر السابق، ص 177.
- 46 - الشكري، أحمد، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1997، ص 23.
- 47 - بوفيل، المرجع السابق، ص 82.
- 48 - الدالي الهادي المبروك، المرجع السابق، ص 35.
- 49 - Spitz, Georges, l'Ouest Africain Français, Paris, 1947, P
- 50 - الصوصو قبائل وثنية، وهم فرع من الفولانيين، هاجر من بلاد التكرور، ويشكل طبقة حاكمة في ولاية كانياجا التابع لإمبراطورية غانا، حيث داوموا على دفع الجزية للسلطة المركزية لمدة طويلة، وبعد فتح المرابطين لغانا عام 1076، أعلن الصوصو استقلالهم وشرعوا في التوسع حتى انتزعوا ولاية ديارا من غانا في نهاية القرن 12م، ليدخلوا عاصمة إمبراطورية غانا سنة 1203م.

51- ماري جاطة ابن الملك المانديجي "ناري فانغان" (1218م-1230م) من أسرة كيتا، وقد قتل سومانجورو إمبراطور الصوصو أفراد عائلته الإحدى عشر، في حين أنه نجا وهو أصغرهم، وقد تولى أمر إمبراطورية المانديجو بعد مقتل أبيه.

قائمة المصادر والمراجع

I- المصادر:

- البكري، عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك، باريس، ميزونوف، 1965.
- ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد، تاريخ ابن خلدون، بيروت، دار الرشد الحديثة، 1981، الجزء 4-5.
- السعدي، عبد الرحمان بن عبد الله التنبكي، تاريخ السودان، باريس، نشر هوداس وبنوا، 1964.
- الشريف الإدريسي، محمد بن عبد الله الحسني السبتي، زهرة المشتاق في اختراق الأفاق، الطبعة الأولى 1989.
- كعت، محمود، تاريخ الفتاش في أخيار البلدان والجيش وأكابر الناس، باريس، ميزونوف، 1981، وقف على طبعه السيدان هوداس ودولافوس.
- هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، مراجعة د. أحمد السقاف ود. حمد بن صراي، أبوظبي، المجتمع الثقافي، 2001.
- ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر، تاريخ ابن الوردي، لندن، نشر S.Hylander، 1823.
- اليعقوبي، أبو العباس أحمد، تاريخ اليعقوبي، المجلد الأول، صدر عن بيروت، بدون تاريخ.

II- المراجع:

- بوفيل، Bovill, E.W.، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة د.الهادي أبولقمة ود. محمد عزيز، بنغازي منشورات جامعة قارونس، الطبعة الثانية، 1988.
- جوليان، شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية، ط 4، ج 2.
- حركات، إبراهيم، طبيعة العلاقات المغربية مع إفريقيا الغربية في العصر الوسيط، مجلة العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية، 1992.
- الدالي، الهادي المبروك، التاريخ السياسي والاقتصاد لإفريقيا، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1999.
- زاهر، رياض، الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968.
- الشكري، أحمد، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة؟)، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1997.
- طرخان، إبراهيم علي، إمبراطورية غانة الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.

- الغربي، محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1982.
- قداح، نعيم، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، كوناكري، 1960
- محمود، حسن أحمد، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، القاهرة، دار الفكر العربي، 1986.
- ناعمي، مصطفى، الصحراء من خلال بلاد تكتة: تاريخ العلاقات التجارية السياسية، الرباط، منشورات عكاظ، 1988.
- Spitz, C, l'Ouest Africain Français, Paris, 1947
- Thomassy, Paul et Maury, raymand, Compagne de Fouilles à Koumbi salah, bulletin de l'institut française d'Afrique Noire, AXIII 195, N°2.